# فكرة الاسلام فى العلاقات الدولية

بقلم محمد عبد المعز نصر

ان مشهد الحرب العالمية الثانية لا يزال حيا قويا فى الأذهان . وانا لانزال نذكر صيحة الحرب والمثل العليا التى كان يلوح بها الساسة من الفريقين المتحاربين لتوكيد السلم واقامة مجتمع عالمى يسوده العدل والاستقرار . فكان المعسكر الغربى يذهب الى أن القضاء على سلطان هتلر وموسولينى شرط أساسى لانقاذ أوربا وانقاذ الحرية والديموقراطية كما كان هتلر يعد العالم بنظام جديد يكفل له الهدوء وتجنب ويلات الحرب لألف عام . وذهب هتلر وذهب موسولينى ولكن لم يذهب معهما القلق والاضطراب وحرب الأعصاب والحروب الفعلية الجزئية التى تهدد بالتمهيد الى حرب عالمية ثالثة . فهل لدى الاسلام ما يساهم به فى اقامة صرح السلام العالمى .. ؟

لم يكن هتلر أو موسولينى أو تشامبرلين الأسباب الحقيقية للحرب العالمية الثانية ، وإنما كانوا أدوات تعبير عن النظم السائدة التى يدفع استمرار وجودها الى الحرب بل يخلقها خلقا ويجعلها ظاهرة طبيعية وليست ظاهرة مرضية فى المجتمعات الانسانية . وما تجدد الخطر والتهديد بحرب عالمية ثالثة الا نتيجة محتومة لبقاء النظم الاجتماعية والمذاهب الاجتماعية التى هيأت الفرص من قبل لقيام هتلر وموسولينى وتشامبرلين ، واستمرار هذه النظم فى حالة من الحرص الشديد والمسلك العنيد ، ومن ثم فلن يتاح للعالم مجتمع سلمى الا اذا حاول أن يغير المبدأ الذى يقوم عليه المجتمع العالمى فى النطاق المحلى والنطاق العام الانسانى . ومن هنا كانت المساهمة التى يستطيع الاسلام اسداءها للعالم مساهمة عظيمة حقا لأنها تتصل بالمبدأ وبالأصول التى سبق أن مسها الاسلام فى الواقع مما حقق به السلم فى عالم متقطع الأوصال ملىء بالعداوة والبغضاء وضروب الامتياز والتفرقة ربما يكاد عالم اليوم يشبهه ويحكى سماته ومقوماته .

ان العالم فى القرن العشرين يسير نحو الوحدة بخطى أوسع مما يستطيع تدبير الانسان مجاراتها وأن نظرة الى خريطة الاطريسى للعالم فى القرن الثانى عشر والى خريطته المعاصرة تبين الفرق الشاسع بين العالم اليوم وعالم الأمس . فلقد ارتبطت شعوب الأرض بالبر والبحر والجو وأصبحت فى نظمها الحضارية وحدة معاشية وعلمية وفكرية ، ولكن هذا الترابط المادى والاعتماد المتبادل فى شئون الحياة لم يقابل بتطور سياسى وتعنوى فى علاقات بنى الانسان . فلا تزال مبادىء السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر التى دفعت بالعالم الى الاشتباك فى حربين عالميتين قائمة مزدهرة . وان كان شىء قد تغير بعد الحرب العالمية الثانية فقد تغير توزيع القوى على مسرح السياسة اذ أفل نجم أوربا كقوة دولية فعالة بعد أن تحكمت فى العالم زهاء الأربعة قرون وظهر القطب السوفيتى والقطب الأمريكى يتنازعان السلطان الدولى وبينهما تسعى مجموعة الحياد الايجابى الى احتلال مكان لا هو باليمين ولا هو بالشمال . ولهذا فان العالم المعاصر لفى أشد الحاجة الى مبادىء ثورية تقوم عليها نظمه الحاضرة وتتكيف بفعلها وفق ما غير طبيعة الاتصال بين شعوب العالم من المخترعات العلمية والتنظيمية والاجتماعية . ولقد كان الاسلام ثورة فى القرن السابع الميلادى ولا يزال فى القرن العشرين ثورة انسانية حقة لديها من مبادئها الانسانية ما تخاطب به العالم وهو يتحسس الطريق نحو النجاة واشباع النظم التى تتجاوب وتشابكه الفعلى فى مجال المعاش والفكر ؛ بل ان الاسلام وهو الدعوة العالمية الموجهة الى البشر جميعا لاقامة حياتهم على الايمان والأخوة والعدل لكفيل لا تفنى حكمته فى مد العون الى الانسانية فى لزمتها المعاصرة . وان قدم الاسلام للعون الى البشرية فى هذا الوقت العصيب فانما يقدمه فى أمل ورجاء وثقة بمستقبل الانسان غير خاضع لما اعترى الفكر الغربى وهو يعالج الأزمة الراهنة من تشاؤم وعجز واحساس بالخيبة واليوار (١ — أ) .

فالاسلام يقدم للعالم المعاصر مذهبه القويم فى خلق الانسان وتنظيم مجتمعه وهو يقوم على مبدأى وحدة الخلق وتنوع المخلوقات داخل اطار هذه الوحدة اذ لا يرى الاسلام أى تعارض بين الوحدة والتنوع بل أنه ليرى كمال الوجود

وأداء البشر رسالتهم فى تعدد فروعهم واختلافهم أفرادا وأمما وهم يموجون بنشاط الحياة فى أطار الانسانية الموحد . فلو أن هذه الفكرة سرت فى أذهان أهل الأرض جميعا وتملكتها لما كان هنالك ذلك التأكيد القوى لنظرية الاختلاف بين الأجناس والأخذ بمبدأ التميز بينها باعتبار صوفى غامض لا يقبل المجادلة أو الريب وبأسلوب قاس لا يقيم للانسانية أى وزن أو تقدير . وانه لمن الواضح أن العنصرية القائمة على التميز بين أجناس البشر قد لعبت وتلعب دورا كبيرا فى تمزيق الصلات بين الأفراد والجماعات فى ربوع الأرض خاصة بعد أن وجدت السبيل ممهدا أمامها بالاعتراف بها فى صلب الدساتير التى حكمت الدولة الحديثة وفى سياسة الدول الاستعمارية . وما اعلان هتلر لمبدأ التميز العنصرى الا مثلا مبالغا فيه لما يجرى فعلا بين رعايا كثير من الدول التى تدعى زيفا وبطلانا أنها نموذج المدنية بل حاميتها . . .

واذ أن التجربة تخط دائما فى الذهن أثرا أعمق مما تخطه المطالعة أو الاستماع فاننا لا نزال شخصيا نلمس بطريقة مباشرة وبال العنصرية على البشرية فقد أتيح لنا فى السنتين الأوليين للحرب العالمية الثانية أن نكون فى انجلترا وأن نكون فى مدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية حيث كان الأستاذ هارولد لاسكى وهو من زعماء الفكر السياسى الحر المعاصر يلهب بسياط بلاغته العنصرية النازية ويرى فى انتصار الحلفاء الغربيين الوسيلة للقضاء على عدواها المهدد لكيان البشرية . ولكن ما أن زرنا مدينة الكاب فى طريقنا من انجلترا الى مصر أثناء الحرب حتى وجدنا العنصرية تتحرك وتعيش سادرة فى غيها فى دولة من دول العالم الذى أراد لنفسه أن يسمى « بالعالم الحر » . فالمركبات منقسمة الى قسم للأوربيين وآخر لغير الأوربيين والفنادق والمتاجر والدور العامة كلها مقسمة الى ما هو مخصص لاستعمال الأوربيين وما هو مخصص لمن سواهم . وتسير حياة القوم هنالك منقسمة فى جميع وجوه نشاطهم اليومى ويرعى حدوث ذلك الانقسام سيف القانون وضغط الرأى العام وتبرز من كل ذلك نيران البغضاء والحقد والاحتقار والهوان . ولا يقف الانقسام فى طريقة الحياة عند حدود جنوب افريقيا ، بل ان أبناء إصرار أهل الجنوب

فى الولايات المتحدة على مواصلة الانفصالية العنصرية قد هزت ضمائر الأحرار من البشر فبلغ الحرص على التميز بين الشعوب البيضاء والزنوج الأمريكيين السود مبلغا جعل حاكم ولاية اركنساس أورفال فوبوس Orval Faubus يتحدى قوانين الاتحاد الأمريكى الفيدرالية ويمتنع عن تنفيذ قانون محو التميز العنصرى فى ميدان التعليم حين أيد مدرسة ليتيل روك Little Rock المركزية العالية فى رفضها قبول التلاميذ الزنوج من أهل البلاد . فما كان من ايزنهاور الا أن أرسل فرقة من فرق الجيش الأمريكى U. S. 101 st. Airborne Division الى مدينة ليتيل روك لتكفل للتلاميذ الزنوج حقا من حقوقهم المدنية ولتحارب بقوة السلاح عزم الأمريكيين الجنوبيين على تنشئة أبنائهم على التباعد العنصرى .

وان داء العنصرية لا يفتك بالمجتمعات التى يظهر فيها من الداخل وحسب بل يتجاوز أثره الحدود القومية ويعمل عمله الخبيث المدمر فى ثنايا المجتمع الدولى . فالأمة التى يؤمن عنصر من عناصرها بالسيادة والتفوق على عنصر آخر يشاركه العيش فى أرجاء الاقليم الواحد لابد وأن يؤمن بالتفوق على سواه من الأجناس التى تقطن بلادا غير بلاده . وان الاحساس بالتفوق العنصرى يؤدى حتما الى ممارسة ذلك التفوق بأساليب الاستعمار الفعلى أو النفوذ الواقعى أو غير ذلك من أساليب الاستغلال . ونحن فى الشرق الأوسط نعرف آثار تلك العنصرية الغربية فى تاريخنا وحاضرنا . وما غزو مصر وفلسطين والجزائر الا امتداد لأثر العنصرية من مهادها فى أوربا وأمريكا الى ربوع بلادنا فى عهد من الأثرة العنصرية وما تنطوى عليه من ضروب الابادة والعدوان وانتهاك القيم الجديرة بالانسان . ولم تكد العنصرية تصبح سمة من سمات العصر وتتنافس فى الميدان الدولى على الامتلاك والاقتناء والانفراد بالسلب والاستغلال حتى اهتزت أركان السلام العالمى وتعرض المجتمع الانسانى لحروب مستطيرة متكررة تهدد بالفناء وانهيار حضارة الغرب السائدة. (١ - ب)

فالاسلام يعالج هذه الظاهرة العنصرية التى تفشت عداواها وظهر أثرها المدمر فى المجتمع الدولى بما يعطى للبشر من دروس أصيل كلى يعلمهم التعايش

فى زمالة وبر وتعاون لا التعايش فى تعال من جانب وشعور بالنقص من جانب آخر وما يستتبعان من نزاع وتطاحن . ويتلخص هذا الدرس الاصلاحى النافذ فى تأكيد الاسلام لوحدة البشر فى أصلهم وأبوتهم وانتسابهم أول ما نشئوا الى أسرة واحدة وأول ما نموا الى أمة واحدة هى أسرة الانسان وأمة الانسان . وخلص الاسلام من هذا الحكم العام الى ثلاثة أحكام فرعية :

(أولا) أنه لا تفاضل أو امتياز بين أفراد هذه الأسرة وأعضاء هذه الأمة فهم متساوون بتساوى وحدة الأصل والمنبت .

(ثانيا) ان حكمة الله فى خلق الانسان ووجوده تقتضى التنوع وتقصد اليه فى اطار هذه الوحدة الشاملة لأن التنوع يحقق غرض البشرية العام بما يهيء للبشر وأممهم المختلفة من تعارف وتفاهم وتنافس فى الخير وتعاون عليه .

(ثالثا) ان مقياس التفاضل والامتياز بين البشر لا يقوم الا على الاستقامة أو تقوى الله والسير على هدى شريعته . فالناس متساوون بالانتساب الى أب واحد وبالحساب أمام إله واحد . وان هذا الدرس القويم الذى يهدف الى تحقيق صالح البشر وخيرهم عن طريق الاختلاف فى اطار من الاتحاد يجد التأييد من آيات الله الكريمة . فيقول الله تعالى فى سورة الحجرات :

"يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير" (٢)

ويقول تعالى فى سورة البقرة :

"كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم" (٣)

ويقول تعالى فى سورة المائدة :

"وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون" (٤)

وهذه الأحكام العامة التى أيدت مبدأ الوحدة البشرية والتنوع فى اطارها والمساواة بين أعضائها أفرادا كانوا أم جماعات وضع الاسلام أساسا مكينا لتقدم الانسان ومهد له السبيل بالعمل الدائب المستمر لارضاء حاجاته المادية والمعنوية وبلوغ مستوى الحياة الجديرة بسمو الانسانية . وذلك لأنه دعا الى رفع العوائق من طريق هذا التقدم مما يسجل التاريخ الأمثلة العديدة على قيامها بين الأفراد والأمم . فالتسابق المعاصر بين بنى الانسان فى النطاق القومى والعالمى لم ينكر دعوة القرآن فى الاستباق الى الخيرات وحسب ، وانما اتخذ شكلا عنيفا مدمرا لصالح البشر وقد وجد التعبير السافر فى السياسة الحديثة والمعاصرة والفكر السياسى الذى يسندها ويبررها والمتمثل فى أن حق تقرير المصير عند الأمم لا يعنى حقها فى حكم نفسها بنفسها فحسب ، وانما يعنى أن يقرر العضو القوى نماءه وامتداده على حساب العضو الضعيف من بين شعوب الأرض . فكانت آسيا وافريقيا فى القرون الأربعة الأخيرة مجال تطبيق لهذا المبدأ الوحشى وجعلت منها الدول الغربية قربة لهذا التسابق الاستعمارى الذى اتخذ الدم رمزا له فى سفكها وامتصاصها والعيش على حسابها. وهكذا كان التسابق الحديث والمعاصر تسابقا لصالح قوم على حساب قوم أو أقوام آخرين ويستدعى قانونه تعطيل تقدم بعض أبناء البشر لنفع بعضهم الآخر ، وشكل هذا الاتجاه مبدأ القومية عند الأمم الغربية الحديثة ففهمت من تنوع الشعوب دعامة لافتراض امتياز شعب على آخر وادعاء بعضها الحق فى جنى ثمرات هذا الامتياز عن طريق الاستعمار والاستغلال والنفوذ .

. . وان مزية الاسلام فى مجال التنظيم الاجتماعى الداخلى والخارجى تقوم على مزجه النظر بالعمل ومحاولته تطبيق مثله العليا تطبيقا محسوسا ملموسا فى المجتمع الانسانى . ولقد أدرك المسلمون وغير المسلمين من المنصفين أن هذه المزية من المزايا العظيمة الأثر فى تاريخ الانسان . ففى الوقت الذى جمدت فيه الكنيسة المسيحية فى أوربا وتخلفت عن أداء واجباتها نحو المجتمع برز الاسلام قويا لدعوة لا تحلق فى السماء وحسب ، وانما تسير على الأرض تغير كل ما يعترض سبيلها وتقدم الحلول الناجحة للشعوب المضطهدة . فأحس العرب والعجم والروم والشعوب آسيا وافريقيا بهذا التيار الاصلاحى النقاذ وخضعوا لقوة اندفاعه . ويقول آرنولد توينبي Arnold Toynbee ان هذه الدعوة الاصلاحية نجحت نجاحا رائعا خاصة حين ترددت المسيحية فى اصلاح طرائقها ، وكان من نتيجة ذلك أنه :

« فى القرن السابع الميلادى حرر العرب المسلمون من السيطرة الاغريقية الرومانية سلسلة من البلاد الشرقية — من سوريا عبر شمال افريقيا الى اسبانيا — كانت تحت الحكم اليونانى أو الرومانى مدة تقرب من الألف عام — منذ أن فتح الاسكندر الأكبر الامبراطورية الفارسية وتغلب الرومان على قرطاجنة . وبعد ذلك بين القرن الحادى عشر والسادس عشر استمر المسلمون فى غزوهم على مراحل لجميع الهند تقريبا وانتشر دينهم بطريقة سلمية الى أبعد من ذلك فى العالم فى أندونيسيا والصين الى الشرق وفى افريقيا الاستوائية الى الجنوب الغربى . وكانت روسيا خاضعة خضوعا وقتيا فى العصور الوسطى المتأخرة للتتار الذى اعتنقوا الاسلام وفتح باقى المملكة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية فى آسيا الصغرى وفى أوربا الجنوبية الشرقية أثناء القرن الرابع عشر والخامس عشر بواسطة الأتراك العثمانيين المسلمين (٥)

فالدولة الاسلامية كما يقول أرنولد توينبي وكما ذهب الى ذلك من قبل ابن خلدون تقوم على الدعوة التى بشر بها الاسلام وحاول بها أن يصلح

أحوال العالم بأسره ، العربي منه وغير العربي وجعل منها الغاية والوسيلة ؛ ولذلك كان ادغاء أعداء الاسلام ، من أنه دين يدعو الى اقامة الدولة الاسلامية على قوة السيف ولاستغلال الشعوب ، يذهب أدراج الرياح حين يسود لواء الاسلام ويحس الناس من بين جميع النحل والملل والأجناس والطبقات بتغيير جوهري في قيم الحياة وموازين العدل والسياسة . ولقد ظهر هذا الأثر أول ما ظهر بين المؤمنين المكيين الذين تذكر المراجع التاريخية دفاعهم عن الاسلام أمام نجاشي الحبشة يقولهم انه دين الأخوة والعدل والتراحم والايمان لا دين عدوان القوي على الضعيف وانكار قيمة الإنسان كما كان متبعا في الجاهلية بين العرب(٦) واننا نرى أن هذه الصورة من وصف التأثر بالاسلام تكاد تتكرر معالمها حين التقى الاسلام بأهل سوريا ومصر وشمال افريقيا وأسبانيا وغيرها من بلاد الشرق والغرب . ويقول ابن قيم الجوزية في كتابه « زاد المعاد » أنه :

« لما رأى المسلمين نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم وعدلهم وعلمهم ورحمتهم وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة قالوا ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم ومن الكفار الذين يقولون عنهم أنهم متغلبون طالبوا ملك ودنيا »(٧) .

وان سر الدعوة الاسلامية الذي جعل ذوي القلوب المبصرة والعقول غير المتحيزة يرحبون بها ويشيدون بسموها هو قيامها على العدل تعامل به المؤمن وغير المؤمن على حد سواء . فهي لم تسمح للعواطف الدينية أو العنصرية أن تتدخل في هذا الميزان الموضوعي الذي يزن أعمال الناس كأعضاء في الأسرة البشرية لا أعضاء في دين من الأديان أو وطن من الأوطان . ومن ثم احتفظ الاسلام دائما بباب مفتوح لعلاقته مع الأجانب . ومن يحاول أن يصور الاسلام بأنه دين وان كان عالميا الا أنه مغلق(٨) يعامل أهله بالحسنى ومن سواهم بالعداء فقد افترى عليه بهتانا عظيما وخانه التوفيق في فهم الاسلام

وروحه . فالمؤمنون مطالبون بكبت عداوتهم لأعدائهم وضبطها على عكس ما نراه في مذاهب السياسة المعاصرة التي تعيش على اذكاء النار والعداوة بين الشعوب واثارة العواطف والهابها والاعتماد عليها في مخاطبة الجماهير وجمعهم على تأييد أغراض الحكم الشخصية المتحيزة . فلا ريب ان الاسلام في تسامحه في معاملة غير المسلمين حتى الأعداء منهم واتخاذه العدل المطلق المجرد الموضوعي مقياس التعامل يعد قوة روحية ومعنوية جليلة الأثر في تبديد ما جبل بالانسانية من داء التباغض القتالك ومحاولتها استخدامه دعامة من دعائم الملك . فالله يقول في كتابه العزيز مخاطبا المؤمنين خطابا عاما شاملا لا قيد فيه ولا استثناء بالآية الكريمة :

" يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون " (٩)

وان هذه الآية الكريمة لتتضمن دستورا لو قامت العلاقات الدولية عليه لكتب لها الاتزان والاعتدال ولجنبت ذلك الجمود الذي تتعرض له من حين لآخر نتيجة لبنائها على الأهواء والشهوات بدلا من استهداء العدل . ولقد أكدت الرسالة المحمدية أهمية العدل في حياة الانسان حتى جعلت منه غاية جوهرية من غايات الأديان السماوية جميعها ، فكل رسول أرسل الى الناس قد جاء بكتاب وميزان عدل في الوقت نفسه حتى يسلكوا السلوك القويم فقد قال تعالى في سورة الحديد :

" لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط " (١٠)

واذا كان العدل هو عماد الرسالة المحمدية فان الاسلام لا يغفل اتخاذه قاعدة للحرب كما يعده قاعدة للسلم . اذ الاسلام دين يجمع بين المثالية في أوج علوها والواقعية في صميم تطبيقها . ومن ثم فهو يقرر أن الحرب حقيقة من حقائق الحياة الاجتماعية بين البشر كما يظهر من قوله تعالى :

" أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا " (١١)

ولكن هذه الحقيقة يجب أن تعالج بحكمة وتدبر ، فلا تعلن الحرب دون سبب ظاهر يتمثل في دفع ظلم أو عدوان يقصد به تدمير حياة المسلمين أو دينهم أو مجتمعهم . اذ حرب المسلمين يجب أن تكون حربا عادلة لا يقشاها اعتداء فالله لا يحب المعتدين . ويتلخص هذا الموقف الاسلامي في الحرب في قوله تعالى :

" وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان أنتهوا فلا عدوان الا على الظالمين " (١٢)

فالعدوان وحده هو الذي يحول بين المسلمين وبين رعايتهم للعلاقات السلمية مع غيرهم فاذا ما انتفى العدوان أمر المسلمين بأن يقيموا علاقاتهم على البر والعدل . وهو أساس ايجابي للعلاقات الخارجية والسياسة التي تنظمها. اذ ليس كافيا أن يعدل المسلم في صلته بسواه من غير المسلمين بل يطلب اليه أن يبره ويحسن اليه ويتجلى هذا الحكم في قول الله تعالى :

" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون " (١٣)

ومن ثم فالعلاقات الطيبة التي يقيمها المسلم بينه وبين غير المسلم تعد من صفات العدل التي ان هو تحلى بها قربته إلى الله وجعلته أثيرا لديه .

وبهذا التشريع الحكيم أضفى الاسلام على العلاقات الخارجية صفة أخلاقية . فعاملة المسلمين لغير المسلمين ليست سوى امتداد لمعاملة المسلمين لاخوانهم من المسلمين فهي تخضع لنفس القانون الأخلاقي المنظم للعلاقات العامة والخاصة والخارجية والداخلية . ويمكن القول في هذه الحال باصطلاح العصر الحاضر أن القانون الدولي الاسلامي هو القانون الدستوري الاسلامي . وهذا يناقض ما ذهب اليه مفكروا السياسة الغربيين من أمثال ماكيافلي وهيجل ممن يرون أن الخلق الاجتماعي لا يوجد الا داخل الوطن الواحد ولا وجود له فيما وراء الحدود ؛ بل ان الحرية من كل قيد سوى مصلحة الوطن هي القاعدة المنطقية للسلوك الدولي . ولهذا كانت المعاهدات في رأيهم غير ملزمة الا الى الحد الذي تراه الدولة محققا لمشيئتها . ولقد كان لهذه الأنانية السياسية دورها الهدام في العلاقات الدولية مما تجلى بوضوح في الحربين العالميتين الأخيرتين . ولا ريب في أن قاعدة السلوك الاسلامي لتقدم الى العالم الذي تسود فيه مثل هذه الفلسفة السياسية مصدرا اصلاحيا ملهما للعلاقات الدولية . وتظهر قواعد العلاقات الدولية الخارجية الاسلامية كذلك من التأكيد لأهمية حفظ العهود والمواثيق وتمجيدها من ناحية وذم الغدر والنكث بالعهود الا اذا وضح وضوحا تاما ان المتعاهد الآخر يقصد الى الغدر ونقض العهد . فيقول تعالى :

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ان تكون أمة هي أربى من أمة انما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » (١٤)

ويقول الله تعالى :

"ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون. فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين" (١٥)

واذا كان النبي محمد المؤمن الأول برسالة الاسلام ومبلغها للعالم فقد كان كذلك المنفذ الأمين لتعاليمها . ومن ثم حرص على أن ينفذ شروط المعاهدات ولو كانت مجحفة بالمسلمين كما كان الشأن فى حالة صلح الحديبية الذى عقده مع قريش وتضمنت شروطه ما عده بعض الصحابة أمرا يمس كرامة الاسلام والمسلمين . وان المطلع على ما رواه ابن هشام نقلا عن ابن اسحق فى وصف مسلك النبي عند عقد هذا الصلح وأثناء تنفيذه ليلمس بطريقة مباشرة مدى حرص نبى الاسلام على السلام وعلى تقديسه للوفاء بالعهد وابعاده شبح الخيانة والغدر عن الدين ومعتنقيه . ويصف ابن هشام هذا الصلح فى قوله :

« قال ابن اسحق : قال الزهرى : ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بنى عامر بن لؤى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له : ائت محمدا فصالحه ولا يكن فى صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها عنوة أبدا . فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل . فلما انتهى سهيل بن عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر لم يبق الا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال بلى ..

قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى .. قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى .. قال فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال أبو بكر يا عمر الزم غرزه فانى أشهد أنه رسول الله .. قال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال بلى . قال أولسنا بالمسلمين؟ قال بلى . قال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى . قال فكان عمر يقول ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا .

« قال : ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم .. قال فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكتب باسمك اللهم فكتبها .. ثم قال أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .. قال فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك .. قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن البعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه وان بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا اسلال ولا اغلال وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

فتواثبت خزاعة فقالوا نحن فى عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا نحن فى عقد قريش وعهدهم وانك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه اذا كان عام قابل خرجنا

عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا ومعك سلاح الراكب السيوف فى القرب لا تدخلها بغيرها .

فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل ابن عمرو اذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد قد انفلت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون فلما رأى سهيل أبا جندل قام اليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ثم قال : يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال صدقت .. فجعل ينثره بتلبيبه ويجره ليرده الى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته . . يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فزاد ذلك الناس الى ما بهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وانا لا نغدر بهم » (١٧) .

وهكذا نفذ التى شروط صلح الحديبية فى اللحظة التى تم فيها ، وقد حافظ على تنفيذه بعد ذلك نصا وروحا مؤكدا فى كل حالة من الأحوال تنزه المسلمين عن أن يكون الغدر صفة من صفات دينهم مؤمنا بالمستقبل وبأن الله قد جعل من هذا الصلح الذى يبدو فى الظاهر المادى أنه هزيمة فتحا ونصرا معنويا لدين الله ، اذ أن الاعتقاد يزكو وينتشر فى جو من الاطمئنان والأمن الذى وفره هذا الصلح . وقد يكون من النصر المعنوى ما يفوق النصر المادى فى الأثر وما يكتب له الدوام والاستمرار حين تخفت صوت السيف ويعلو صوت الحق . واننا لنسوق هنا شاهدا آخر من الشواهد التى ذكرها ابن هشام للدلالة على أن المسلم لا يتمسك بقواعد الأخلاق فى حدود سلطان

أمته وحسب ، وانما يعامل الأجنبي بنفس القواعد التي يعامل بها أخاه في الايمان . فهو يقص قصة أبو بصير مع رسول الله حين التجأ اليه يطلب حماه من قريش في قوله : قال ابن اسحق :

« فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية وكان ممن حبس بمكة فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب فيه أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثا رجلا من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم فقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب الأزهر والأخنس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر وان الله جاعل لك ومن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق الى قومك . قال : يا رسول الله أتردني الى المشركين يفتنوني في دينى؟ قال : يا أبا بصير انطلق فان الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا » (١٨) .

وان هذه الروح السمحة التي تبرأت من الغدر بالعهد وتنزهت عنه قد استقرت في ضمير المسلمين المؤمنين من بعد الرسول ولم يقف أمر تطبيقها على عهود السلم وانما صبغت وجهة نظرهم كذلك الى الحرب . ويبدو هذا جليا من وصية أبي بكر لجند أسامة وهم يوشكون السير لغزو الروم بعد ما حدث في بعث أبيه (زيد بن حارثة) وما حدث في مؤته وفي تبوك من قبل وتهديدهم للدين الجديد اذ قال :

« أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكله . وسوف

تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه . وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله » (١٩) .

وفى الواقع أن هذا الحرص من قبل نبى الاسلام وأتباعه على اقامة العلاقات الخارجية بينهم وبين غير المسلمين على أسس من الأخلاق العالمية انما يرجع فى أصله الى طبيعة الرسالة الإسلامية . فهى رسالة انسانية تهدف الى بناء مجتمع انسانى توأمه الود والبر والتعاون وليس قوامه العداوة والاعتداء كما يدعى دعاة الأعداء من المشركين وأصحاب الأديان الأخرى . اذ قصد الاسلام بتعاليمه أن تكون هديا للناس جميعا لا لطائفة دون طائفة وأن تكون القوة والروح المنظم لمجتمع انسانى يسوده الخير والسلام . وان مثل هذه الطبيعة السلمية لدعوة الاسلام لتناقض اتهام الخصوم بأن الاسلام يقيم علاقاته على قاعدة « الصديق أو العدو » وأنه قد خرج الى هذه الدنيا حاملا سيفا يقتل به كل من عداه من غير المؤمنين به ، كما تناقض تفسير فقهاء المسلمين الذين حاولوا أن يقننوا علاقات الدولة الاسلامية فى أيامهم وعصورهم وأن ينسبوا تجربتهم فى العلاقات الدولية الى الأسس الاسلامية . فالإسلام لا يفترض قيام حرب دائمة مع شعب من الشعوب ، وانما يفرق بين حالتى الحرب والسلم بل هو لا يحارب الا المعتدين الظالمين ويسارع دائما الى عقد الصلح واعادة السلام وتثبيت أركانه كلما سنحت الفرصة لعودة المعتدى الى تحكيم العقل وسلوك الرشاد . ويمكن تفسير الأسباب التى أدت الى اتهام الاسلام بالعداء لغير المسلمين ومحاربتهم وذلك بتأمل الظروف التاريخية التى أحاطت بالدعوة الاسلامية والدولة الاسلامية فى مراحل اتصالها بالدول الأجنبية .

فشباب أوربا الذى جاء أثناء الحروب الصليبية ليقضى على الاسلام ودولته فى عهد من عهود الظلم والتعصب، لم يعرف من المسلمين سوى العداء المتصور والحروب الفعلية . وورث الخلف عن السلف هذا المسلك وامعنوا فى الظلم بأن نسبوا سلوكهم الخاص الى المسلمين ، ولا يزال الغرب يؤكد هذا الادعاء خدمة لأغراضه الاستعمارية والعقائدية وخشية يقظة الاسلام التى قد تودى بسلطانه وتستبدل حضارة انسانية بحضارته الوحشية . ويوضح مولاى محمد على هذا المسلك بقوله :

« شاءت أوربا أن تقضى على الاسلام بحد السيف فى حروبها الصليبية ولكنها باءت بالفشل . وكان أثر ذلك سيئا فقد عاد الجندى الأوربى الى وطنه ممتلئا بالاعتقاد الزائف أن الاسلام هو عدو أوربا بل عدوها المخيف لأنه لم يلتق به الا فى ساحات القتال ، وظل هذا الاعتقاد ميراثا يتوارثه الخلف عن السلف . ولم يقتصر الأمر على ذلك فان قادة أوربا — وهم سادة أساليب الدعاية — اشتطوا جلوة هذه الكراهية بتصويرهم الاسلام تصويرا يخالف الحقيقة كل المخالفة لأسباب سياسية ودينية .

ان الاسلام رسول السلام فى العالم كافة بكل ما فى هذه الكلمة من معان فهو أكثر الأديان المنزلة سماحة ويسرا ولكنهم شوهوا حقيقته وقالوا عنه انه دين تعصب واستبداد . ان الاسلام لم يكتف بأن يقر فى وضوح كل أنظمة الأديان السماوية الأخرى باعلانه أن ما من أمة على وجه الأرض الا جاءها نذير أو رسول يدعوها لعبادة الله ، بل تعدى الى أبعد من ذلك فجعل كل من اعتنق الاسلام يؤمن بالرسل الأخرى ايمانه بنبى الاسلام تماما(٢٠). ولكن زعماء أوربا السياسيين والدينيين يصورون النبى عليه الصلاة والسلام ممتشقا السيف فى يد وحاملا القرآن فى الأخرى . وعلى الرغم من الأضواء التى سلطت أخيرا على هذه الترهات فان بعض الكتاب الأوربيين مازالوا يصفون الاسلام بأنه دين السيف(٢١). وقد فكرت أوربا تحت تأثير اعتقاد

خبيث فى القضاء على الاسلام باضعافه من ناحية ومهاجمته بشتى الادعاءات الكاذبة والافتراءات من ناحية أخرى . وان كان هناك ثمة أمر عقدت عليه أوربا الخناصر فهو ان الاسلام أخطر عدو لها وأن واجبها القضاء عليه أو اضعافه بشتى الأساليب المشروعة وغير المشروعة . وقد سعت الهيئات السياسية والدينية التى تنتسب لكافة شعوبها الى هذه الغاية سعيا حثيثا » (٢٢) .

ويثابر الغرب المعاصر على مواصلة تراث الدولة الرومانية وتراث أمراء العصور الوسطى الأوربية من معاداة الاسلام ومحاربته لأن الاسلام فى ذاته عقيدة ثورية اجتماعية تحرض المسلمين دائما على ألا يخضعوا للذل والاستغلال اللذين فرضتهما الدول الرأسمالية الاستعمارية على بلاد الاسلام فى عهد سيادة الحضارة الغربية وتفوقها . فحرب الغرب على الاسلام حرب سياسية واقتصادية ، وانما تتخذ من الدين تكأة لتبرير الأطماع المادية التى اشتهر بها الغرب فى عهد تفوقه . ومن يقرأ كتب المستشرقين والمتخصصين من الغربيين فى الدراسات الاسلامية يرى أنها تكاد تكون صورا متشابهة من سوء الفهم المقصود للاسلام ومن التأويل المغرض المبتور لآياته الكريمة واثبات الشروح الضيقة الأفق لبعض فقهاء المسلمين فى عهود الصراع والاعتداء من قبل الأعداء . فمؤلف مثل ج. سبنسر ترمنجهام J. Spencer Trimingham يكشف أمر المستشرقين المغرضين بأن أيد فى دراسته للاسلام فى السودان الحكومة البريطانية (٢٣) فى تدخلها الدينى بمنعها بسيف الدولة تسرب المسلمين من سكان السودان الى جنوب السودان ففى اختلاطهم بالقبائل البدائية والوثنية خطر على التبشير المسيحى هناك وتعويق لانتشاره . وذلك لأن الاسلام فى رأى ترمنجهام دين مفهوم يخاطب الوثنيين فى الصميم ويخاطب طموح النفس البشرية الى الرقى والمساواة والكرامة والحرية . فالتاجر المسلم أو الفقيه أو الدرويش اذا نزح من شمال السودان وحل بين القبائل الوثنية وصلى وصام وعبد الله على دين الاسلام اجتذب الوثنيين الى ذلك الدين أكثر مما يجتذبهم

المبشرون المسيحيون الأوربيون ، فهم يعطونهم دينا مسيحيا ولكنهم لا يرفعونهم الى مصافهم من الناحية الاجتماعية بل يبقون على الفوارق القائمة على الطبقة والعنصر واللون والثقافة وغير ذلك . وهكذا يؤكد « ترمنجهام » أن الاسلام والمسيحية حينما يترك لها مجال التنافس حرا بين الوثنيين البدائيين يتغلب الاسلام لاعتماده على مخاطبة الفطرة الانسانية . وهو يقول في ذلك :

« وأبعد من ذلك فحينما يكون الاسلام في منافسة مع هيئات التبشير المسيحية التي يديرها أوربيون حتى عندما يكون الحكام مسيحيين فانه مع ذلك ينتشر لأنه يقدم قيما دينية واجتماعية واقتصادية أقرب الى الفهم مما تقدم المسيحية الغربية التي تسمح فقط لمعتنقيها بالمساواة الدينية لا المساواة الاجتماعية .

وعلى مناطق الحدود تكون القيم الاجتماعية والاقتصادية المستمدة من الانضمام الى الاسلام واضحة وضوحا بالغا اذ الدولة اسلامية يحكمها على ذلك موظفون بريطانيون ومسلمون » (٢٤).

فتشهير كتاب الغرب بالاسلام واتهامهم اياه بأنه يقيم العلاقات الدولية على الخصومة والعداء والحرب المستمر ، انما يستمد جذوره كما رأينا من مصادر متعددة بعضها ديني وبعضها سياسي اقتصادي . وقد دفع الغرب الى اضطهاد الاسلام ومحاولة القضاء عليه وقوع أغلب بلاده في مناطق آسيا وافريقيا الغنية بالموارد الطبيعية والتي اتخذ منها الاستعمار في عهده الرأسمالي مجالا مشروعا للاستغلال والنفوذ . فنزوع الاسلام الى مقاومة الظلم وتمجيده لقيمة الانسان واقراره العدل كأساس للدولة كل هذا جعل الغربيين وهم عبدة المصلحة الذاتية في العصر الحديث يركزون هجومهم على الاسلام كعقيدة دينية ونظام اجتماعي . ولكن قوة الدعوة الاسلامية وقيمتها الحضارية في تهيئة الجو والفرصة للتعايش السلمي بين أقوام متعددي الأجناس والأديان والألوان ومستويات التحضر كثيرا ما تخرس ألسنة الداعين ضد الاسلام والمشوهين لحقائقه ، ومن ثم نرى الى جانب الانصاف للاسلام من بعض كتاب الغرب اضطرار المسيئين لفهم الاسلام لأن يقرروا الحقيقة ولو بين

ضباب الادعاءات والافتراءات ، فيقررون ان الاسلام انما يأذن بالحرب عند ما يقع الظلم على المسلمين أو على دينهم . ويظهر هذا فى كتاب مجيد خدورى « الحرب والسلام فى قانون الاسلام » ، فالكاتب يكتب الصفحة تلو الصفحة ليثبت أن علاقات الاسلام الدولية تقوم على مبدأ الخصام لغير المسلمين ولكنه يضطر أخيرا أمام تراث الاسلام وتاريخه أن يعترف بتسامح الاسلام وكرمه مع غيره من المشركين وأهل الكتاب وبأنه لا يعلن حربا الا على الذين هم حرب عليه (٢٥) .

وليس هذا بالأمر الجديد . فالاسلام دعوة سلام تبدو فى كل وجه من وجوه النظر والتطبيق والعقيدة والسياسة . ففهم الاسلام للدين هذا الفهم الواسع الذى يقوم على أن رسولا قد بعث الى كل قوم وأن الرسل كثيرون منهم من قص الله على النبى ذكره ومنهم لم يقصص خليق بسعة الصدر التى اختص بها دين عالمى كدين الاسلام وخليق بسعة الأفق التى قصد الى جعلها ميدانا يلتقى فيه الناس كافة . وذلك لأن الاسلام قصد به أن يكون ميدان لقاء للعالمين لا ميدان فراق وخصام . وأن الدعوة الاسلامية أكدت أن ذلك هو الهدف وأنه هو الوسيلة كذلك الا اذا أقام عائق العوائق فى سبيل نشر دعوته . فلا اكراه فى الدين ولا عنف اذ يقول تعالى لنبيه :

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

ويعلمه أن يقول :

« قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين » (٢٦)

ويقرر أن الدعوة وسيلتها الاقناع والحسنى :

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » (٢٧)

ويقول تعالى :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى
هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم
بالمهتدين » (٢٨)

ولقد كان سلوك محمد فى دعوته متسقا مع عقيدة الاسلام ومنهجه ، فكان فى ذلك اماما وتوفر للمسلمين بهذه الامامة نموذج حتى يتأسونه ويتبعونه ويبحثون عن سنته كلما ضل بهم الطريق أو تعقدت لديهم المسائل والمشاكل . وتعد المعاهدات والمواثيق النبوية ثروة لا حد لها فى بيان حرص نبى الاسلام على مسالمة البشر جميعا سواء كانوا مشركين أو أهل كتاب ما داموا لا يحاولون أن يطفئوا نور الله وأن يصدوا بأنفسهم أو بسلطانهم انتشار ذلك النور الإلهى الذى جاء به الإسلام . ومهما أنكر المنكرون دعوة الاسلام الى السلام فلن يستطيعوا أن يغضوا من موقف محمد ازاء مشركى مكة وذهابه الى ما ذهب اليه من تنازل فى الحقوق وحرص على تنفيذ العهود حتى يضمن السلام لان الاسلام يزدهر فى جوه بعد أن جاء ليهب نعمته الى الوجود .

واذ كانت معاملة النبى محمد للمشركين على هذا المستوى العالى من المسالمة والتعاهد فانه لم يأل جهدا فى موادعة أهل الكتاب . فليس هنالك معاملة أكرم من معاملة محمد ليهود يثرب حين هاجر اليها اذ قرر فى ميثاقه الدستورى لتنظيم العلاقات بين طوائفها ، أن اليهود « أمة مع المؤمنين » وكفل لهم حرية الدين ولم يستثن فى معاملتهم أحدا سوى الآثمين منهم شأنهم فى ذلك شأن المسلمين . وبذلك ضمن لهم المساواة فى الحقوق ولم يفرض عليهم أى شرط من شروط التمييز الاجتماعى بين المواطنين . ويظهر هذا من مواد هذا الميثاق المتصلة باليهود فهى تقرر :

١ — وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢ — وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو أثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته .

٣ ــ وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

٤ ــ وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

٥ ــ وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

٦ ــ وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .

٧ ــ وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

٨ ــ وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف . الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته .

٩ ــ وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

١٠ــ وأن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف وأن البر دون الاثم .

١١ــ وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .

١٢ــ وأن بطانة يهود كأنفسهم .

١٣ــ وأنه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد .

١٤ــ وأنه لا ينحجز على ثار جرح وأنه من فتك فبنفسه وبأهل بيته الا من ظلم وان الله على أبر هذا .

١٥ــ وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .

١٦ــ وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم .

١٧ــ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

١٨ــ وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

١٩ــ وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٢٠ــ وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .

٢١ــ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله وان الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

٢٢ــ وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٢٣ــ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

٢٤ــ واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين .

٢٥ــ على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

٢٦ــ وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وأن البر دون الاثم لا يكسب كاسب الا على نفسه . وان الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وابرها .

٢٧ــ وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى . ومحمد رسول الله » (٢٩) .

وهكذا تؤكد مواد هذا الدستور الاسلامى أن أساس التعامل مع اليهود هو البر المحض والمشاركة فى تحمل المسئولية الوطنية العامة من مالية وعسكرية وسياسية . فالبر والتعاون هما أساس العلاقات الاسلامية مع غير المسلمين طالما لا يأثمون ولا يعتدون بطريقة جماعية كما حدث فى تاريخ القبائل اليهودية التى نقضت شروط هذا العهد وجعلت من نفسها حربا على الاسلام والمسلمين فى الداخل والخارج . ومن ثم وجد المسلمون أنفسهم فى حل من شروط هذا الميثاق بعد أن قابل اليهود السماحة بالغدر والمسالمة بالعدوان .

ولقد مد المسلمون هذه المعاملة القائمة على « البر المحض » الى المسيحيين كذلك وأكدوا لهم الأمن والحماية وحرية الاعتقاد . ولم يخضع المسيحيون

الا لما خضع له أهل الكتاب من دفع الجزية وهي ضريبة المساهمة في المسئوليات العامة للدولة الاسلامية . وتظهر أسس هذه العلاقة الخيرة من معاهدة النبي مع نصارى نجران وفيها يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ..

هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لأهل نجران اذ كان عليهم حكمه في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل ذلك عليهم وترك ذلك كله لهم على ألفي حلة من حلل الأواقي . في كل رجب ألف حلة وفي كل صفر ألف حلة مع كل حلة أوقية من الفضة فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب . وعلى نجران مؤنة رسلي ومتعتهم ما بين عشرين يوما فما دون ذلك ولا تحبس رسلي فوق شهر .

وعليهم عارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا اذا كان كيد باليمن ومعرة . وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلي حتى يؤدوه اليهم .

ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دنيه ولا دم جاهلية . ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش . ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ..

ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتي منه بريئة . ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا واصلحوا ما عليهم غير مثقلين بظلم »(٢٠) .

وإن دلت نصوص هذه المعاهدة على شيء فانما تدل على أن الدولة الاسلامية لا تقيس بمقياسين أو تكيل بكيلين . فالعدل هو الفيصل فى أحوال المسيحيين الشخصية والعامة كما هو كذلك فى أحوال المسلمين .

وان معاهدات النبي الأخرى مع أهل الكتاب تفيض بروح المسالمة والعدل والاستمتاع الكامل بحريات المواطن وحقوقه فى الحياة والدين والمال . فكتابه «لجنبنا ولأهل خيبر ومقنا وللذراريهم ما دامت السموات على الأرض» [31] من الوثائق التى تؤكد أنه «لا اكراه فى الدين» ولا فى غيره من شئون المجتمع المعنوية والمادية . كما أن كتابه الى أسقف ايلة وأهلها «من محنة ابن رؤبة وسروات أهل أيلة» يقرر الى جانب تأكيدات الأمان من قبل حكومة الاسلام ايمان محمد برسالة عيسى فى قوله «فانى رسول الله بالحق أومن بالله وكتبه ورسله وبالمسيح بن مريم انه كلمة الله وانى أومن به انه رسول الله» [32] . وتسير كتب النبي ومعاهداته مع أهل الكتاب على هذا النسق ولا تشترط الا على شرطين رئيسيين هما : وجوب المحافظة على السلم ، وأداء الجزية . فالإسلام يضع السلم فى المكان الأول لاقرار النظام القومى والعالمى . وما ان اتفق محمد مع أسقف ايلة وأهلها حتى منحهم وثيقة الأمان فى الداخل والخارج هم «ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر» فى معاهدته معهم ونصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم ..

هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر» .

فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ما له دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس .

وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يردونه من بر أو بحر .

هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة باذن رسول الله » (٣٣) .

ولقد طبعت هذه الروح التي سادت المعاهدات النبوية المعاهدات التي عقدها الخلفاء الراشدون مع غير المسلمين ، اذ أكدت الاحتفاظ لهم بحقوقهم وحرياتهم كاملة ما داموا يعيشون في دولة الاسلام ، وأن الصلح الذي عقده عمر مع أهل ايليا (بيت المقدس) يعد في الفكر السياسي الغربي والشرقي مثالا رائعا للتسامح الاسلامي في معاملة المخالفين له في الدين والسياسة . وتجري هذه المعاهدات على النحو الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ..

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايليا من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار واحد منهم . ولا يسكن بايليا معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل ايليا أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت . فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايليا من الجزية . ومن أحب من أهل ايليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه ما على أهل ايليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما في هذا الكتاب من عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة»(٣٤) .

ونحن ان استعرضنا المعاهدات الاسلامية مع غير المسلمين في عهد اتصالهم الأول بغير المسلمين حين كانت السنة النبوية تحكم حكما مباشرا أعمالهم ومواثيقهم تتبين كذب الادعاء بأن الاسلام يفترض اعلان الحرب التي لا تنقطع على غيره حتى يسلموا . ولقد استغل المغرضون المغرضون تقنين بعض الفقهاء للقواعد التي تضبط علاقات المسلمين بغيرهم . ولكن من يتأمل حتى القواعد الفقهية التي كثر الافتراء في تأويلها يجد أنها لا تجعل مطلقا مغزى اعلان الحرب المستمر من المسلمين على غيرهم وبعبارة أخرى الجهاد القائم أبد الدهر ضد غير المسلمين . فابن القيم الجوزية يلخص موقف أهل الأرض من الاسلام في قوله « فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به — ومسالم له آمن — وخائف محارب»(٣٥) . ويعرف محمد الخضر حسين المحاربين بقوله : « أما المحاربون فهم الذين يهاجمون أمة اسلامية أو يتحفزون للهجوم عليها أو يمدون أيديهم الى حق من حقوقها ، وحكم الاسلام في هؤلاء أن يدفعوا اذا هاجموا ويبادروا بما يكف بأسهم اذا تحفزوا ويقوموا اذا اعتدوا على الحق حتى ينصفوا . باذن الاسلام في دفع المهاجم أو كف المناوىء مع رعاية جانب الرفق والأخذ بالعرف»(٣٦) . وهذا التعريف لأهل الحرب أو المحاربين تعريف مستقى من روح الاسلام وقوانينه ونظمه فأهل الحرب هم المعتدون من الأجانب وليسوا الأجانب على الاطلاق وهم المعتدون طالما هم معتدون فان جنحوا للسلم بادر المسلمون بالجنوح لها تطبيقا لقوله تعالى :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم . وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله . هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم . يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »(٣٧) .

وان حرص الاسلام الأكيد على السلام فى العلاقات الدولية ، انما ينبثق من حرصه على السلام داخل الدولة الاسلامية فالاسلام لا يسمح مطلقا بقيام حالة حرب بين المسلمين ويقدم لمعالجة مثل هذه الحالة جهازا عادلا حاسما فى الوقت نفسه . فاذا ما قام خلاف بين طائفتين من المسلمين تدخلت الدولة بالأسلوب السلمى لوضع حد له ، فاذا لم يفلح الأسلوب السلمى واعتدت طائفة على الأخرى أمر الاسلام بمحاربة المعتدية — شأنها فى ذلك شأن أية جماعة أجنبية معتدية — حتى تعود الى الاحتكام الى أوامر الله وقوانين المجتمع الاسلامى . فاذا عادت عوملت كأنها لم تعتد فلا يضيع لها حق بما جنت وانما يكون ميزان العدل وحده هو الفيصل فى الأمر . ومن ثم نرى أن رائد الاسلام فى سلمه وحربه انما هو العدل والاهتداء بقيمه المستقيمة فى اقامة صرح المجتمع الاسلامى والعالمى . وفى هذا يقول تعالى :

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين. انما المؤمنون أخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٣٨)

وان الاسلام بهذا الموقف من السلم والحرب ليساهم أعظم المساهمة وأعمقها فى تاريخ الانسان فى الظروف الحاضرة التى تمر بها المدنية العالمية . فهنالك اجماع كما ذكرنا بين مفكرى العالم السياسيين بأن التطور فى النظم السياسية لم يجار التطور فى النظم الاقتصادية والفنية . اذ على حين أن وحدات العالم السياسية أضحت فى حالة اعتماد متبادل بين بعضها البعض من ناحية الضروريات والكماليات التى تقوم عليها الحياة فهى لا تزال تصر على الانفصالية التى يستتبعها مبدأ السيادة القومية وتتخذ من الحرب فى النهاية تعبيرا عن ارادتها التى لا راد لها سوى ما تحس به من ضعف يحول بينها وبين الالتجاء الى هذه الوسيلة فى العلاقات الدولية . فالحرب فى الدولة

الحديثة هى فى التحليل النهائى للتنظيم الدولى مقياس السيادة وأداة اكتمالها . ولا شك أن عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة كانتا خطوتين فى سبيل القضاء على هذا المذهب القوى واقامة منظمة دولية تحد من الميل الى اتخاذ الحرب وسيلة لتحقيق المطامع والأغراض الخاصة الا أن التحيز فى استخدام سلطاتهما قد انتهى بدمار الأولى ويهدد بانهيار الثانية . وان كانت هيئة الأمم المتحدة قد تضمنت المبدأ الاسلامى الذى يؤكد قصر الحرب على مقاومة المعتدى حتى يثوب الى قانون العدالة العام ، وأقامت لتطبيق ذلك جهازا عسكريا الا أن التنفيذ العملى قد أظهر فى حالة مثل حالة الحرب الأهلية فى كوريا أو العدوان الثلاثى على مصر أن الأمم المتحدة ليست متحدة على ميزان عدل تفرض نتائجه على المعتدى سواء انتسب الى الغرب أو الى الشرق على قدم المساواة . وكلما تأمل المفكر ما دعا اليه الاسلام من أن المجتمع الانسانى كان أمة واحدة وان اختلاف الأمم الفرعية ليس الا وسيلة التسابق الى الخير وأن البر والتعاون هو أساس التعامل بينهما جميعا ، وان الحرب انما هى عصا تأديب للمعتدى تجلى له مبلغ ما يستطيع الاسلام تقديمه من الناحية المذهبية والتنظيمية الى عالم أدرك الآن وحدة حضارته وعجز مع ذلك عن تقديم النظم السياسية التى تتلاءم مع تطور الحضارة ، وانه لمن المؤكد ان الاسلام كما ساهم فى العصور الوسطى والدولة الحديثة فى نشر الدعوة الى اقامة العلاقات الدولية على أسس من العدالة يساهم الآن فى الدولة المعاصرة فى حل الأزمة التى تواجه العالم وتهدده بالبوار والدمار مما دفع بكثير من مفكرى الحضارة المعاصرين الى التشاؤم والاحساس بالعجز وخيبة الأمل . ان فى عدل الاسلام نصا وروحا ونظرا وتطبيقا نعم الهادى للبشر فى مشكلة الحياة الانسانية وهى تتجاذب بين قوى الاتحاد والفرقة .

# المراجع


١ – (ا) Sorokin, P.A. — Social Philosophies of an age of crisis.
(ب) Wallas. Graham — Human Nature in Politics.

٢ – سورة الحجرات ١٣

٣ – سورة البقرة ٢١٢

٤ – سورة المائدة ٤٧

٥ – Arnold Toynbee : The World and the West, Oxford Univ. Prese 1953, P. 19

٦ – ابن هشام .

٧ – زاد المعاد في هدى خير العباد لأبي عبد الله بن القيم الجوزية ( ٦٩١ – ٧٥١ ) القاهرة ١٩٣٤ م ١٣٥٣هـ (محمد علي صبيح وأولاده – ميدان الأزهر) والجزء الأول ص ١٨٦

٨ – Khadouri, Majid — War and Peace in the Law of Islam p. 63.

٩ – سورة المائدة ٨

١٠ – سورة الحديد ٢٥

١١ – سورة الحج ٤٠

١٢ – سورة البقرة ١٩٠–١٩٣

١٣ – سورة الممتحنة ٨–٩

١٤ – سورة النحل ٩١–٩٢

١٥ – سورة الأنفال ٥٥–٥٨

١٦ – سورة الأنفال ٥٥–٥٨ ص٢٣٥ عرب

١٧ – السيرة النبوية لابن هشام حققها مصطفى السقا ... وابراهيم الابياري وعبد الحميد شلبي ، القاهرة ١٩٣٦ الجزء الثالث ص ٣٣١

١٨ – ابن هشام جزء ٣ ص ٣٣٧

١٩ – محمد حسين هيكل – الصديق أبوبكر – الطبعة الثانية ١٣٦٢ مقتبسة ص ١٠٥

٢٠ – (ا) سورة فاطر ٢٤
(ب) سورة يونس ٤٧
(ج) سورة الرعد ٧

٢١ – "ان نشر الاسلام بحد السيف والقوة هو الواجب الديني على كل مسلم" و.ب. ماكدونالد ، دائرة المعارف الاسلامية .

٢٢ – مولاي محمد علي – الاسلام والنظام العالمي الجديد – ترجمة أحمد جودة السحار ص ٣٢

٢٣ – Trimingham, J. Spencer — Islam in the Sudan, Oxford Univ 1949, P. 248.

٢٤ – Trimingham, J. Spencer — Islam in theudan, Oxford Univ. 1949 P. 249.

٢٥ – Majid Khadouri — War and Peace in the Law of Islam. Baltimore, John Hopkins Press 1955 P. 177.

٢٦ – سورة الكافرون .

٢٧ – سورة العنكبوت ٤٦

٢٨- سورة النحل ١٢٥

٢٩- محمد حميد الله الحيدرابادى - مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة . القاهرة ١٩٤١ ص ٤

٣٠- محمد حميد الله الحيدرابادى - مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة . القاهرة ١٩٤١ ص ٨١

٣١- الوثائق النبوية ص ٣٨

٣٢- الوثائق النبوية ص ٣٣

٣٣- الوثائق النبوية ص ٣٤

٣٤- الوثائق النبوية ص ٢٦٨

٣٥- ابن القيم الجوزية - زاد المعاد فى هدى خير العباد - الجزء الثانى ص ١١٥

٣٦- محمد الخضر حسين - رسائل الاصلاح ١٩٣٩ ص ١٤١

٣٧- سورة الأنفال ٦١-٦٤

٣٨- سورة الحجرات ٩-١٠